" العزة "

ويمضى القرآن الكريم فى توجيهاته الراشدة وحثه على الأخلاق الكريمة ومن بين هذه الأخلاق القرآنية " العزة " فإن اعتزاز المسلم بنفسه ، ودينه ، وربه وعقيدته ، وإيمانه ، هو كبرياء المسلم ، وعزة المسلم ، وهومخالف لكبرياء السلطة والطغيان ، والظلم ، فالعزة التى يوجه إليها القرآن الكريم هى التواضع للفقراء والأنفة والشمم لدى الطغاة ، والمتغطرسين الجبارين ، والترفع عن النفاق أو التذلل ، أو إهانة النفس لسلطان أو جائر ، والانخفاض الى خدمة المسلمين والتبسط معهم ، مع احترام الحق الذى يجمعه بهم ، لذا يقول الله تعالى :- ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة فاطر:١٠]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [سورة النساء:٩٨:٩٩].

ويقول الإمام الشهيد سيد قطب: لقد كان هذا النص يواجه حالة واقعة في الجزيرة العربية فى مكة وغيرها بعد هجرة النبى - ﷺ - وقيام الدولة المسلمة ، فقد كان هناك مسلمون لم يهاجروا ، حبستهم أموالهم ومصالحهم ، حيث لم يكن المشركون يدعون مهاجراً يحمل معه شيئاً من ماله ، أو حبسهم إشفاقهم وخوفهم من مشاق الهجرة حيث لم يكن المشركون يدعون مسلما يهاجر حتى يمنعوه ، ويرصدوا له فى الطريق ، وجماعة أُخرى حبسهم عجزهم الحقيقي من الشيوخ والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلةً للهرب ولا يجدون سبيلاً للهرب والهجرة ، ولقد اشتد أذى المشركين لهؤلاء الباقين من أفراد المسلمين ، وذلك بعد عجزهم عن اللِّحاق برسول الله - ﷺ - وصاحبه ، ومنعهما من الهجرة ، وبعد قيام الدولة الاسلامية ، وبعد تعرض الدولة المسلمة لتجارة قريش في " بدر " وانتصار المسلمين ذلك الانتصار الحاسم ، فأخذ المشركين يسقون هذه البقية المتخلفة صنوفا من العذاب والنكال ويفتنونهم عن دينهم فى غيظ شديد ، وقد فتن بعضهم عن دينه فعلا واضطر بعضهم الى إظهار الكفر تقية ، ومشاركة المشركين عبادتهم وكانت هذه التقية جائزة لهم يوم إن لم تكن لهم دولة يهاجرون اليها متى استطاعوا ، فأما بعد قيام الدولة ، ووجود دار الإسلام فإن الخضوع للفتنة ، أو الالتجاء الى التقية وفى الوسع الهجرة والجهر

بالاسلام ، والحياة فى دار الاسلام ، أمر غير مقبول وهؤلاء هم الظالمون لأنفسهم ، لأنهم قاعدون للمحافظة على أموالهم ومصالحهم اوإشقاقاً من مشاق الطريق ، ومتاعب الهجرة .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ... ﴾ [سورة النساء:٩٧]

حيث أنهم حرموها الحياة فى دار الاسلام وهى حياة طاهرة نظيفة ، وفيها الحرية الكاملة والطمأنينة النفسية والراحة والاستقرار ، بعيداً عن الذل والهوان ، والإرباك العقلي والنفسي وأيضا البدني ، وهؤلاء قد توعدهم الله - سبحانه وتعالى - بالعذاب الشديد فقال تعالى: ﴿ ... فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [سورة النساء:٩٧].

وهذه الآيه تعنى هؤلاء الذين فتنوا عن دينهم ، والقرآن الكريم يصور ذلك الموقف تصويراً حياً نابضاً بالحركة والحوار مع هؤلاء الذين فتنوا في دينهم فقال تعالى :-

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ ... ﴾ [سورة النساء:٩٧]

إن القرآن الكريم يعالج نفوس بشرية ، ويهدف الى استجاشة عنصر العزة ومطاردة عوامل الضعف والذل والهوان وذلك بقبول الأمر الواقع وذلك مثل الذى نراه اليوم في واقعنا المعاصر من قبول العرب والمسلمين للذل والهوان ، وضياع العزة والكرامة العربية الإسلامية، ونسيان تاريخهم الحافل بالانتصارات وسجلهم المملوء بالأمجاد العظيمة والفتوحات التى سجلها تاريخهم بأحرف من نور ، وقبلوا الذل والهوان خاصة ونحن نكتب هذه الكلمات يقرع سمعي هذا الخبر الذى يطفح بالذل واستخفاف واستهانة العدو الاسرائيلى بالعرب والمسلمين في كل أرجاء الأرض وهومحاصرة العدوالصهيوني للمسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين ، مسرى النبى - ﷺ - والذى أَمَّ النبى - عليه السلام- جميع الأنبياء وصلى بهم ، ورضي الأنبياء به إماماً وقائداً ونبياً ، وان دل هذا فإنما يدل على أن الأنبياء جميعاً رضوا به نبيا وإماما كما انهم آمنوا بما أُنزل عليه فهو بذلك مسلمون جميعا ، ومع ذلك لا ترى موقفاً صارماً حيال هذه الاستفزازات الصهيونية الماكرة من العرب والمسلمين فأين هم ؟!!

إن الموت الزؤام خيرلهم من هذه الحياة ، حياة الذل ، والاستكانة والهوان ، ان بطن الأرض خيرلهم من ظهرها ، وقد ذكرني هذا الموقف بضياع الأندلس المسلمة ، وسقوطها مملكة تلوالأخرى ، والمسلمون يستنجدون بالمسلمين في كل أرجاء المعمورة فلم يقف لنجدتهم احد ، وفي ذلك يقول الشاعر العربي المسلم مُصَوراً ذلك الموقف المخزي ، والذى يشبه موقف العرب والمسلمين في هذا العصر ، وتلك الآونة المحزنة ، والمؤسفة وكأن الشاعر

قد كشف له الحجاب حيث ان الأبيات تحكى واقعنا المعاصر، وما يحدث الآن من استيلاء الصهيونية العالمية على الحرم الابراهيمى، وتطويق المسجد الأقصى تريد هدمه، وإزالة معالمه، فيقول الشاعر عبد الله السرندى:

تلك المصيبة أنست ما تقدمها ... وما لها من طول الدهر نسيان
يا راكبين عناق الخيل ضامرة ... كأنها فى مجال السبق عقبان
وراتعين وراء البحر فى دعة ... لهم بأوطانهم عز وسلطان
هل عندكم فيأمن أهل أندلس ... قد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا مستضعفون ... وهم قتلى واسري فما يهتز إنسان

وكان آخر إقليم سقط من بلاد الاندلس "الحمراء" وغادرها قائدها ويدعى "عبد الله" وامتطى صهوة جواده، ويمن ناحية المغرب ثم بكى بكاءً مُراً، وانتحب انتحاباً شديداً، وَتُسَمَىْ إلى الآن "بزة المغربي" فقالت له أمه واسمها عائشة:

انك مثل النساء من مضاعا ... لم نحافظ عليه مثل الرجال

فما أشبه الليلة بالبارحة، فما هى ذا الاندلس قد ضاعت، واكتفى المسلمون باستيراد الكابتن "مانويل جوزيه" ليدرب النادي "الأهلى" وهو نادي القرن فهو برتغالي والأندلس هى اسبانيا، والبرتغال حالياً، ثم ضاعت فلسطين والعراق، وأذل المسلمون إذلالاً في البوسنة والهرسك، وقامت مجازر علنية أمام ما يسمى بحقوق الانسان إن المراد بحقوق الإنسان هو الإنسان الكافر وليس سواه كما حوصرت كثرة كاثرة من بلاد الاسلام، فهل آن الأوان لأن نستيقظ من رُقَادنا ؟!! ونفيق من غفلتنا ؟!! ونؤب الى رشدنا ؟!! ليسترد المسلمون مجدهم، وعزتهم وسيادتهم ؟! أجل والله لقد آن.

هل سمعت المسلمين فى القنوات الفضائية وهم يصرخون نساءً ورجالاً وأطفالاً، شيباً، وشباباً، قائلين وإسلاماه حين سمعت بأُذنى وشاهدت ببصري هؤلاء يصرخون واسلاماه قلت لهم وهم لا يسمعون قولي: تلك أيام قد خلت. أين المنتصر بالله ؟؟، أين صلاح الدين ؟؟، الذى أرسل له شاعر وقد كتب له على لسان المسجد الأقصى يقول له:

يأيها الملك الذى ... لمعالم الصلبان نكس
جاءت إليك ظلامة ... تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طهرت ... وأنا على شرفي منجس

فَجَيَّشَ صلاح الدين الجيوش ، وقصد المسجد الأقصى ، وحرره بعد احتلال دام "ثمانية وثمانين عاماً" وها هو ذا " المعتصم بالله العباس " وموقفه من الرومي الذى يساوم مسلمة في السوق على سلعة لها ، فيلطمها الرومى على وجهها فتخر ساقطة على الأرض ، فتصيح قائلة " واعتصماه " فيلحق المعتصم لنجدتها ويجيش الجيوش ، ويفتح " عمورية " ويخرب " حصن زبرطة " ويأسر القائد " توفلس " فيهز هذا النصر اريحة الشاعر " حبيب بن أوس الطائي " فيقول مشيداً بالفتح ، بذلك الانتصار العظيم ، فيقول :

السيف اصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف ... في متونهن جلاء الشك والريب
يا يوم وقعت عمورية انصرفت ... منك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بني الاسلام في صيد ... والمشركين ودار الشرك في صيب

وفي الحرب العالمية نرى القائد " منتوجمرى " يضع حذاءه فوق قبر " صلاح الدين " ويقول له : ها نحن قد عدنا فقم يا صلاح ، ولو ان صلاح الدين حياً ما استطاع ذلك الحاقد الماكر ان يتفوه بهذه المقولة ، أو ان يصل الى مكان يوجد فيه صلاح الدين ولوكان في شرق الارض أوغربها ، إنها اليهودية الماكرة والصليبية الحاقدة والسؤال الآن ، هل يجدي نفعاً دعاء الصالحين ؟ وهل ينزل الله الطير الأبابيل ؟ لا نقول فى ثقة تامة " لا " لن يتقبل الله دعاء مليار ومائتي مليون مسلم في العالم ، وأكثر من مائتى مليون عربى ولن ينزل الطير الأبابيل ما دام هذا العدد موجوداً فوق سطح الأرض .

إنما يستجيب الله سبحانه حين يهب هؤلاء بأسلحتهم وكل طاقتاهم سياسيا وعسكرياً واقتصادياً وقتالياً وحينذاك يكلؤهم الله برعايته ، ويصونهم بحفظه ، وينصرهم بقدرته ، ويحميهم بقوته ومساعدتهم ، يقول الله سبحانه﴿...وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ...﴾ [سورة المجادلة:٢٢] " وأيدهم بروح منه " فالروح هنا معناها النصر من الله -عزوجل..

ومشهد " الاحتضار " بذاته مشهد ترتجف له النفس البشرية وتتحفز لتصور ما فيه وإظهار الملائكة في المشهد يزيد النفس ارتجافاً وحساسية والقاعدون الذين ظلموا انفسهم وقد حضرت الملائكة لتتوفاهم وهذا حالهم " ظالمى أنفسهم " وهذا وحده كفيل بتحريك النفس وارتجافها ، إذ يكفى أن يتصور المرء نفسه والملائكة تتوفاه وهوظالم لنفسه ، وليس أمامه من فرصة أُخرى لإنصاف نفسه ، فهذه هى اللحظة الأخيرة ، ولكن الملائكة لا يتوفونهم وهم ظالمون لانفسهم فى هدوء وصمت ، بل يقلبون ماضيهم ، ويستنكرون أمرهم ،

ثم يسألونهم فيما أضاعوا أيامهم ولياليهم ؟ وماذا كان همهم فى الدنيا ؟ " قالوا فيما كنتم"؟ فيجيب هؤلاء المحتضرين على هذا الاستنكار جواباً كله مذلة ، ويحسبونه معذرة على ما فيه من مذلة ، " قالوا كنا مستضعفين في الأرض " لقد كنا أذلاء في الأرض لا حول لنا ولا قوة ، ولا عزة ولا طول ، بيد أن هذا الاعتذار غير مقبول البتة حين يجئ الرد عليهم فى قوله سبحانه :﴿...أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ...﴾ [سورة النساء:٩٧]

ليس لديهم عذر حقيقي يقبل ، أوعجز يسمح لهم بقبول معذرتهم ، فليس لديهم العذر الذى يحملهم على قبول المهانة والذل ، والفتنة عن الإيمان حيث ان أرض الله واسعة، وفيها متسع لأمثالهم للعيش فى طمأنينة وعزة وكرامة ، وإنما الذى جعلهم يتحملون الذل والمهانة حرصهم على أموالهم ، ومصالحهم ، وأنفسهم ذلك الذى جعلهم يسكنون ويقيمون في دار الكفر فى ذلة ومهانة ، مع ان أرض الله واسعة ، والهجرة إليها ميسرة ، وينتهي المشهد المؤثر بذكر النهاية المخيفة التى تتجلى في قوله تعالى : ﴿...فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [سورة النساء:٩٧] ثم يستثنى القرآن من لا حيلة لهم فى البقاء فى دار الكفر والتعرض للفتنة ، والحرمان من الحياة في دار الإسلام من الشيوخ، والضعاف، والنساء، الأطفال، فهؤلاء لهم رجاء فى عفو الله ومغفرته ورحمته حيث إن هؤلاء لهم عذر مقبول عند الله وعند الناس لأنهم عاجزين عن الفرار والهجرة بدينهم إلى دار الإسلام ، وقال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [سورة النساء:٩٨ :١٠٠] ويمضى هذا الحكم ويسرى إلى آخر الزمان ، فهو ليس خاصاً بزمان معين ، فهو حكم عام ينظم كل مسلم ومسلمة تناله الفتنة في دينه في أيه أرض ، وتمسكه أمواله ومصالحه الخاصة ، وأولاده وقرابته ، أو إشفاقه من آلام الهجرة ، ومخاوف التعب ، ومحاذر الغربة متى كان هنالك دار إسلامية يستطيع العيش فيها ، ومباشرة حقوقه الإسلامية وإقامة شعائر دينه من صلاة ، وصوم ، ويعيش فى ظلال شريعة الإسلام، متمتعاً بحياة إسلامية رفيعة محافظا على دينه، وإنسانيته ، وكرامته بمنأى عن الذل والهوان ويقول " ابن كثير" هذه الآيه الكريمة عامة فى كل من أقام بين ظهراني المشركين وهوقادر على الهجرة ، وليس متمكن من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه ، مرتكب حراماً بالإجماع ، وبنص هذه الآيه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ...﴾ [سورة النساء:٩٧] يعنى بتركهم الهجرة .

فعن " سمرة بن جندب "- رضي الله عنه- قال : قال رسول الله -ﷺ- " من جامع المشرك مسكن معه فإنه مثله " .

وعن أبى هريرة- رضي الله عنه- ان رسول الله-ﷺ- رفع يده بعد ما سلم وهومستقبل القبلة فقال " اللَّهم خلص الوليد بن الوليد وعياش بن أبى ربيعة، وسلمة بن هشام ، وضعفة المسلمين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً من أيدى الكفار " .

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال " إلاَّ المستضعفين " قال :كنت أنا وأُمى ممن عذر الله- عز وجل - ونرى القرآن الكريم يحرض على الهجرة فيقول: " ومن يهاجر في سبيل الله فيجد فى الارض مراغما كثيراً وسعة " ففي الآيه تحريض على الهجرة وترغيب فى مفارقة المشركين .

ويقول سبحانه :﴿...وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ...﴾ [سورة النساء:١٠٠] يعنى : ومن يخرج من بيته بنية الهجرة فمات في أثناء الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر ، كما ثبت فى الصحيحين عن عمر بن الخطاب . رضي الله عنه- قال :قال رسول الله -ﷺ-: " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر إليه "

وهو عام في الهجرة ، وفي جميع الأعمال ، ومنه الحديث الثابت في الصحيحين في الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفساً ، ثم أكمل بذلك العابد المائة ثم سال عالم هل له من توبة ، فقال له : ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده الى بلد أُخرى يعبد الله فيه ، فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الأخرى أدركه الموت في اثناء الطريق ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقال هؤلاء إنه جاء تائباً ، وقال هؤلاءإ لم يصل بعد ، فأمروا ان يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها ، فأمر الله هذه أن تقترب من هذه ، وهذه ان تبتعد ، فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر فقبضته ملائكة الرحمة وفي رواية أُخرى :" انه لما جاءه الموت باء بصدره إلى الأرض التى هاجر اليها " .

ويروى لنا " الزبير بن العوام "- رضي الله عنه- قال :" هاجر خالد بن حزم -رضي الله عنه - إلى أرض الحبشة فنهشته حية فمات فنزلت فيه " ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيما " .

ويقـــول تعـــالى :﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ...﴾ [سورة النساء:١٠٠] وهذا ترغيب فى الهجرة وهوأمر عام كما أومأنا إلى ذلك آنفا ، فأرض الله واسعةً ورزقه سابغ على العباد ، وقال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة العنكبوت:٥٦] ويقول صاحب " التفسير الكبير " :-" ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم "فى هذا التوفي قولان :الأول :معناه تقبض أرواحهم عند الموت ، وعلى هذا القول كيف الجمع بينه وبين قوله تعالى فى الآيات الكريمة :﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ... ﴾ [سورة الزمر:٤٢] و﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سورة الملك:٢] .وقوله تعالى:﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة البقرة:٢٨] وقوله تعالى:- ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة السجدة:١١] .

قلنا خالق الموت هو الله تعالى ، والرئيس المفوض إليه هذا العمل هو"ملك الموت " وسائر الملائكة أعوانه .

والقول الثاني :. هو أن المعنى : توفاهم الملائكة يعنى يحشرونهم إلى النار وهو قول الحسن .

" ظالمى أنفسهم " فقد يراد بالظلم " الكفر " قال تعالى: ﴿ ... إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة لقمان:١٣] وقد يراد به المعصية .

وروى أن النبى- ﷺ - بعث بهذه الآيه إلى مسلمي مكة فقال "جندب بن حمزة " لبنيه " احملوني فأنى لست من المستضعفين ، ولا إنى لا أهتدى إلى الطريق ، والله لا أبيت الليلة بمكة ، فحملوه على سرير متوجهين إلى المدينة وكان شيخاً كبيراً ، فمات في الطريق . وهذا الأمر بالنسبة للقادرين على الهجرة أما غير القادر فلا شئ عليه حيث أنه يعد عاجزا ، وغير قادر على الهجرة والعاجز عن الشئ غير مكلف به ، فأولئك عسى الله ان يعفو عنهم وكان الله عفواًغفوراً ، إن النفر يلفظ " عسى " هنا بقيد ويدل على أن ترك الهجرة فى هذه الأحوال أمر مضيق لا توسعة فيه .

إن العزة والكرامة من أبرز الخِلَال التى نادي بها الإسلام وَغَرَسَها فى المجتمع الاسلامى ، كما تعهد بنمائها ، وذلك بما شَرْعَهُ من عقائد ، وما سَنَّ من تعاليم ، واليها يومئ سيدنا " عمر بن الخطاب "- رضي الله عنه - بقوله : أحب من الرجل إذا سم خطة حق أن يقول بما لك فيه " لا " ونرى المؤذن يصيح بالأذان خمس مرات في اليوم والليلة ينادى قائلا " الله اكبر ، " في بداية الأذان ونهايته وما ذلك إلاَّ ليتأكد ، ويوقن المسلم أن كل

متكبر بعد الله فهو صغير وان كل متعاظم بعد الله فهو حقير، فهذا النداء يرد الناس إلى رشدهم، وصوابهم كلما اطاشتهم الدنيا، وضللتهم متاهاتها الطامسة، وتوكيداً لهذه المعاني اختار الله- عزوجل - أسمى" العظيم " و" الأعلى "من أسمائه الحسنى ليكررها المسلم اثناء ركوعه وسجوده فيقرر المسلم رب العالمين بالعظمة والعلو، والعزة حق يقابله واجب، فاذا كلفت بعمل فاديته على أكمل وجه، وبضمير يقظ، ويخلق المسلم فلا سبيل لأحد عليك، ولا يستطيع رئيسك فى العمل أن يتوجه إليك بكلمة نابية أو لفظ محرج فبذلك تستطيع أن تحتفظ بعزة نفسك أمام رؤسائك وقيادتك في العمل وخارجه وذلك حين تسد الثغرات التى ينفذ منها إليك، والمثل العربي يقول : " إياك وما يتعذر منه " يقول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[سورة يونس :٢٧]

واجترح السيئات، وارتكاب المناكر، واقتراف الآثام سبيل الإهانة والمذلة وقد بَيَّن الله- عزوجل - أن الهزيمة في موقعة " أحد " كان من أسبابها ما ارتكبه بعض الصحابة - رضي الله عنهم - من مخالفات فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [سورة ال عمران :١٥٥].

فالإسلام عندما أوصى المسلم بالعزة أرشده إلى أسبابها، وَيَسّرّله وسائلها، وافهمه ان العزة فى طاعة الله، والمؤمن الذى يعلم ذلك ويعمل به من الواجب أن يأخذ نصيبه كاملاً فى الحياة الرفيعة العظيمة، فاذا ما اعتدى عليه أحد، أو طمع فيه ظالم كان دفاعه عن نفسه جهاداً في سبيل الله، ومن ثم فان موت المسلم دون حقه شهادة في سبيل الله، جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال:"يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذَ مالي يعنى يريد اغتصابه. قال : لا تعطه مالك، قال : أرأيت إن قاتلني ؟

قال : قاتله، قال: أرأيت إن قتلني؟ قال : فأنت شهيد، قال : أرأيت ان قتلته ؟ قال : هو فى النار " (١).

أجل فمن عزة المؤمن ألاَّ يكون مستباحاً لكل طامع، وغرضاً لكل هاجم وكلاً مباحاً للظالمين، بل على المسلم ان يستميت دون نفسه، وماله وعرضه، وان أُغرقت في سبيل ذلك

1 - رواه مسلم.

كثرة كاثرة من الدماء ، وشرع الله الثأر من المظالم إعزازً لجانب المهضوم ، وإيهانا لجانب المعتدى .

يقول تعالى : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[سورة الشورى:٣٦:٣٨]، ويعي هذه التعاليم ، وتلك الإرشادات الربانية العظيمة فى القرآن المحكم آياته ، التى توفر لأصحابها العزة والكرامة فرادى وجماعات،قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[سورة الشورى:٣٩:٤٠].

فمن الأخلاق التى وجهنا إليها القرآن الكريم ان المسلم يغفرله اذا استغضبه من هو دونه ، وأقل منه ، كما من خلقه ان يؤدب المجترئين عليه المتطاولين على شخصيته ، حتى يكسر شوكتهم ، وينأى عن مخاطرهم ، وفى هذه الحال يجب أن يبرز قوته حتى يرهب المجرمين ، وله وقت ذاك ان يعفو وذلك عفو المقتدر ، فالخلق الذى تضمنته الآيات الأخيرة يخالف الخلق الذى تضمنته الآيات الأولى ، فالأولى تعنى التجاوز عنها فوات العاثرين ، قال تعالى :﴿...وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة الشورى:٣٧]، أما الآيات الأُخرى فتقدم الجاني إلى القضاء ثم تصدر عليه العقاب حتى اذا انكسرت سطوته ، واختفت جرأته وتضاءلت قوته ، وتمكن سيف القصاص من عنقه جاء الفضل ، بعد استطالة العدل فيكون ذلك زيادة فى عزة المسلم ، ومن العزة ألاَّ يستكين المسلم ، ويذل نفسه في سبيل مأرب دنيوي ، اوتحقيق مطلب على يد من يستطيع ذلك ، قال- ﷺ - " اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأُمور تجرى بالمقادير" والبشر جميعاً لا يستطيعون منع شئ اعطاه الله ، أوكتبه لك وإنهم لا يستطيعون إعطاء شئ منعه الله ، اولم يكتبه لك ، فعلى المسلم أن يرد الأمور ومصايرها إلى الله . عزوجل . فكل قرار لا يتم إلاَّ اذا أمضاه الله - عزوجل- قال تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾[سورة فاطر :٢] .

هذه هى الأخلاق فى القرآن الكريم التى تُوَجهنا إلى العزة ، والكرامة والشهامة ، وعدم الركون إلى متغطرس جبار ، أوفاسق ظالم ، ولا يذل المسلم نفسه إلاَّ لخالقه -عزوجل - ونهى الله - عزوجل - أن يتخذ المؤمنون الكافرين أعواناً وأنصاراً لما يتوهمونه فيهم من القوة ، ويتركون ولاية المؤمنين ، ويطلبون بموالاة الكافرين القوة والغلبة ، وفى الحقيقة إن

الكفار لا عزة لهم ، فكيف تبتغى منهم فقال تعالى :﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [سورة النساء :١٣٩].

فإن كان هؤلاء يطلبون لدى الكافرين العزة والمنعة والغلبة ، فإن العزة لله يؤتيها من يشاء ، فعليهم أن يطلبوها من الله-سبحانه وتعالى-بصادق إيمانهم، وإتباعهم هدايته التى أرشد اليها أنبياءه ورسله ، وبينوا لهم أسبابها وقد أتاها المؤمنين حينما اهتدوا بكتابه ، وساروا على سنته ، ونهجوا نهجه ، فلما اعرضوا عن هذه الهداية التى اعتز بها أسلافهم ذلوا ، وضعفوا ، وخضعوا لعدوهم وصار منهم منافقون يوالون الكافرين يبتغون عندهم العزة والشرف وما هم لها بمدركين ، وحقا انه من اعتز بغير الله ذل ، وما نشاهده في عصرنا هذا خير شاهد ودليل على صدق هذا الكلام ، وهوواقع لا يستطيع أحد ان ينكره ، اوحتى يجادل أويمارى فيه ، وصدق الله حين قال " أأنتم اعلم أم الله" ؟؟!!!

وقد حذر القرآن الكريم قائلاً: يا معشر المؤمنين من يرجع منكم عن دينه الحق ، ويبدله بدين أخر ويرجع عن الايمان إلى الكفر ، فسوف ياتى الله مكانهم بأناس مؤمنين يحبهم الله ويحبون الله رحماء متواضعين للمؤمنين ، أشداء متعززين على الكافرين .

يقول " ابن كثير " :" وهذه صفات المؤمنين الكامل ان يكون أحدهم متواضعاً لأخيه متعززاً على عدوه مثل قوله تعالى :﴿ ... أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ... ﴾[سورة الفتح:٢٩]

ومن علامة حب الله تعالى للمؤمن أن يكون لَيّن الجانب ، متواضعا لإخوانه المؤمنين ، ومتصفا بالقوةِ حِيال المؤمنين والكافرين ، يجاهدون لإعلاء كلمة الله ، ولا يبالون بمن لامهم ، فهم طلاب فى دين الله ، لا يخافون فى ذات الله أحداً ، ومن اتصف بهذه الأوصاف الحميدة فإنما هومن فضل الله عليه وتوفيقه له ، والله- سبحانه وتعالى- واسع الأفضال والإحسان ، عليه بمن يستحق ذلك .

فقال - سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة المائدة:٥٤] .

ومن التوجيهات القرآنية الكريمة ، والإرشادات الإلهية العظيمة التى توجه المسلم للاستمساك بالعزة حيث ان العزة لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين ، فقد قال الكافرين لئن رجعنا من هذه الغزوة وهى " غزوة بني المصطلق " وعدنا إلى المدينة المنورة وهى بلدنا لنخرجن منها محمداً وأصحابه ، وصاحب هذه المقولة " عبد الله بن أبى بن سلول " زعيم المنافقين - وسلول - اسم لأُمه ، وعنى بالأعز نفسه وأتباعه ، وعنى بالأذل رسول

الله- ﷺ - وأصحابه ، يقول المفسرين وأهل العلم ، لما قال " ابن سلول " ما قال ورجع إلى المدينة ووقف له ولده " عبد الله " على باب المدينة واستل سيفه فجعل الناس يمرون به، فلما جاء أبوه قال له ابنه " عبد الله " وراءك والله لا تدخل المدينة أبدا حتى تقول ان رسول الله هو الأعز ، وأنا الأذل ، فقالها ، ثم جاء إلى رسول الله- ﷺ - فقال :يا رسول الله بلغني إنك تريد ان تقتل أبى ، فان كنت فاعلاً فمرني فأنا احمل إليك رأسه ، فقال له رسول الله - ﷺ - بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا ، ولله - عزوجل - القوة والغلبة ، ولمن أعزه وأيده من رسوله والمؤمنين ، وليست لغيرهم ، والصيغة تفيد الحصر.

يقول القرطبي " توهموا إن العزة بكثرة الأموال والأتباع فبين الله -عزوجل- ان العزة والمنعة لله ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لفرط جهلهم وغرورهم ، وعمى قلوبهم لا يعلمون ، وغاب عنهم لطيش عقولهم ، وفساد نياتهم ، ان العزة والغلبة لأوليائه دون أعدائه. فقال تعالى : ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة المنافقون:٨].

هذه الأخلاق فى القرآن الكريم الذى يحافظ علي المؤمن ، ويصون كرامته ويحافظ عليه من أن يتعرض للذل ، والمهانة ، والضعف ، فلو أن المسلمين استمسكوا بهذه القيم ، وتلك الأخلاق القرآنية لعز المسلمون وسادوا ، وعاشوا حياةً ملؤها العزة والكرامة.